الباب التاسع

الحياة التي نَنشُدُهَا

كتب «فريدرك أنجلز» :

«لابد للإنسان أن يجد لباساً يستر به جسده، وخبزاً يشبع به بطنه، حتى يستطيع الخوض في الفلسفة والسياسة.»

والواقع أن الأسئلة الأولى التي يسعى الإنسان إلى معرفة جواب عنها في حياته هي :

من أنا؟

وما هذا الكون؟

وكيف بدأت حياتي؟

وإلى أين ستنتهي؟

إنها أسئلة الفطرة الأساسية. فالإنسان يفتح عينيه في عالم يحوي كل شيء، غير جواب هذه الأسئلة ؛ فالشمس توصل إليه الحرارة اللازمة، ولكن الإنسان غافل عن حقيقتها، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته، والهواء يعطي الحياة للإنسان، ولكن الإنسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت؟ ولماذا تقوم بهذا العمل؟

إنه يمعن في وجوده، ولكنه لا يفهم من هو؟ ولماذا جاء إلى هذه الدنيا؟ والذهن الإنساني غير قادر على وضع إجابات هذه الأسئلة الأساسية في حياة البشر، ولكنه لن يتخلى عن بحثه، ولن يَمَلَّ هذا البحث عن جواب.

هذه الأسئلة ، وإن وردت ألفاظاً على ألسنة الجماهير فإنها تؤلم روحها ، وهي ترد أحياناً بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الإنسان مجنوناً .

❖ ❖ ❖

لقد عرفنا «أنجلز» مفكراً ملحداً ، ولكن إلحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلة وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفاً بالدين ، وكان يقضي وقتاً طويلاً في الكنيسة ؛ ولكنه بعد ما كبر وتوسع نظره في الدراسة أعرض عن الدين التقليدي . وهو يكتب أحوال هذه الفترة في خطاب له إلى أحد أصدقائه ، قال :

«إنني أدعو كل يوم ، وأقضي اليوم كله داعياً أن تنكشف لي الحقيقة . لقد أصبح الدعاء هوايتي ، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي ؛ إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم . إن قلبي يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور ، قلبي يبكي ، عيني تبكي ، ولكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصل إلى الله الذي أتمنّى رؤيته بكل قلبي وروحي . وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من الروح القدس . ولن أقلع عن تفكيري هذا ، ولو كذَّبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة ! !»

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روحَ «أنجلز» الشاب ، ولكن الدين المسيحي التقليدي لم يمنحه السكينة التي كان ينشدها ، فانقلب متمرداً عليه ، وانغمس في الفلسفات السياسية ، والمادية الإلحادية .

وجذور هذه الغريزة الإنسانية هي إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق ؛ ففكرة : «الله خالقي وأنا عبده» منقوشة في اللاشعور الإنساني ؛ وهي ميثاق سري مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول ، وهو يسري في كل خلية من خلايا جسمه ؛ وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحسّ بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذي لم يره قط ، والذي لو وجده لخرّ راكعاً على ركبتيه ، ثم ينسى كل شيء .

وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقي لهذه الفطرة الإنسانية، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يُقبلون على أشياء أخرى. فإن كل قلب يبحث عمن يُهْدِي إليه خير أمانيه.

❖ ❖ ❖

وعندما رفرف العلم الوطني لأول مرة على الأبنية الحكومية في الهند بدلاً من العلم البريطاني: «اليونيان جاك»، في صباح يوم 15 أغسطس عام 1947 - اغرورقت عيون كثيرة بالدموع، وهي ترى الصورة التي طالما حلمت بها. وكانت هذه الدموع مظهراً لعلاقة أصحابها «بالمعبودة: الحرية»، التي ضَحَّوْا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم.

وهكذا عندما يذهب زعيم وطني إلى ضريح «أبي الوطن» ويضع عليه إكليل الزهور، ثم يقف أمامه لحظةً مطأطئاً رأسه، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذي يقوم به المؤمن أمام معبوده، حين يركع ويسجد.

وحين يمر شيوعي أمام تمثال «لينين» ويرفع قبعته عن رأسه، ويبطئ في سيره، يكون هو الآخر، مثل رجل الدين، يقدّم أحسن تمنياته إلى إلهه. فكل إنسان مجبور على أن يتخذ شيئاً ما إلهاً له، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة.

ولكن الإنسان إذا قدم القرابين لغير الله، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة.. و﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1]، والظلم أن تضع الشيء في غير موضعه، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبعةً فهو «ظلم»، والإنسان عندما يميل إلى غير الله لملء فراغه النفسي، ويتخذ من غير الله ملجأً له، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال.

ولما كانت هذه الغريزة فطرية، فإنها تظهر دائماً في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله، ولكن المجتمع، وأحوال البيئة، يعطيان هذه الغريزة اتجاهاً مغايراً، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان في أول الأمر، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك، عمداً أو عفواً، لأنه يتمتع بحريّة أكثر في الحياة الجديدة، فيرضى بها ولو ظاهرياً.

---

(1) لقمان: 13.

لقد كان«برتراند رسل» شديد العلاقة بالدين في أول حياته، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام، وفي يوم من الأيام سأله جدّه: ما تكون دعواتُك المفضلة يا«بَرْتِي»؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول: «لقد سئمت الحياة، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي - يا إلهي!» وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه، بفعل البيئة التي أحاطت به، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعدُ برتراند رسل الفيلسوف الملحد، الذي لا يؤمن بالحقائق السماوية. وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثاً معه عام 1959، وعندما سأله«فريمان» - المعلق السياسي بالإذاعة -: «هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان؟»، أجاب «رسل» قائلاً: «نعم، لقد وصلت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال عنها «أفلاطون»: إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات. إنها عالمَ أبديٌ، حر، لا يقاس بزمان. ولقد حظيت في هذا العالم بسكينة تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين».

لقد أنكر هذا المفكر البريطاني حقيقة المعبود السماوي، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى، بسبب الغريزة الفطرية التي ولد بها الإنسان، فجاء بالرياضيات والفلسفة، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحده. بل اضطر أيضاً أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التي ينفرد بها الله سبحانه، وهي: الأبدية، والتحرر من أبعاد الزمن، والسر في ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التي يبحث عنها الإنسان.

❖ ❖ ❖

«جواهر لال نهرو في حالة الركوع!» لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر في يوم من الأيام لما صدّقها الناس! ولكن الصورة التي تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة«هندوستان تيمس»، الصادرة في دلهي يوم 3 أكتوبر من عام 1963، تصدّق

هذا الخبر. وقد ظهر في تلك الصورة رئيس وزراء الهند الأسبق في حالة ركوع، واقفاً أمام ضريح المهاتما غاندي في ذكرى ميلاده، وهو يقدم تمنياته إلى «أبي القومية الهندية»!

إن مثل هذه الأحداث تقع كل يوم في كل مكان من العالم؛ وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم، تسكيناً لغريزتهم التعبدية، وذلك لأن «الإله» ضرورة فطرية للإنسان. وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية، لأن الإنسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين، إذا امتنع عن السجود أمام «الله الواحد»؛ أي أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذي يخلو عند إنكار وجود الله، والإلحاد.

❖ ❖ ❖

وليست الحقيقية أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عند الكفر بالله، فيسكن غريزته، بل سوف أقول: إن الذين يتخذون من غير الله إلهاً محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيّيْن، كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك «أُمّاً» له.

وكل ملحد، مهما بدا له، أو للآخرين، أنه ناجح، يتعرض في حياته لمواجهة لمحات، يضطر إزاءها أن يفكر إذا ما كانت الحقيقية التي قَبِلها - مصطنعة وزائفةً؟

❖ ❖ ❖

وعندما ختم «جواهر لال نهرو» سيرته الذاتية سنة 1935، أي قبل اثني عشر عاماً من استقلال الهند، كتب في خاتمتها قائلاً:

«إنني لأشعر أن فصلاً من حياتي قد انتهى، وأن فصلاً آخر على وشك البدء، ترى ماذا سيحوي هذا الفصل؟ لا يستطيع أحدٌ أن يتنبأ به؛ فإن أوراق الحياة القادمة مختومة».

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو، وجَدَ نَفْسَه رئيساً لوزراء ثالث كبريات دول العالم، يحكم سدس المعمورة بدون شريك. ولكن «نهرو» لم يقتنع

بهذا، بل ما زال يشعر، وهو في أوج بروزه السياسي، أن هناك فصولاً أخرى من كتاب حياته لمّا تُفْتَحْ. لقد كان يعتمل في قرارة ذهنه السؤال نفسه الذي يولد معه الإنسان، وقد قال نهرو، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في دلهي في يناير من عام 1964، والذي اشترك فيه ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم، قال:

«إنني سياسي، ولا أجد وقتاً كثيراً للإمعان والتفكير. ولكنني أُضْطَرّ في بعض الأحيان أن أفكر: ما حقيقة هذه الدنيا؟ ومن نحن؟ وماذا نقوم به؟ إنني على يقين كامل أن هناك قُوىً تصوغ أقدارنا»[1].

وها هو الشعور بعدم الطمأنينة الذي يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبوداً لهم، ويخيل إليهم في غمرة الملذات المؤقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة - أنهم قد ظفروا بالاستقرار.. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرةً أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار.

وهذه الحالة التي تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها، وأنما هي أهم من ذلك بكثير

إنها مسألة أزلية وأبدية، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة، التي يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب.

إنها البادرة الأولى لحياة الخنق الأبدية، التي سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك.

إنها أجراس التنبيه الأولى في حياتهم، تنذرهم بالأحوال الرهيبة، والظروف المروعة التي سوف تمر بها أرواحهم.

وهي دخان من الجحيم الذي لابد لهم أن يخلدوا فيه.

ولو أن النيرانَ شبت في منزل أحدهم، فقد ينبهه الدخان الذي سيدخل في أنفه إلى الخطر الوشيك، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ في الوقت المناسب؛ ولكن

---

(1) جريدة National Herald عدد 4 يناير عام 1964.

حين تمسك ألسنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات. ولات حين مناص؛ بل هو الهلاك الذي يحيط به من كل جانب، فقد قدر له أن يحترق في النيران، لبلادة حسه، وجهالته من أمره.

ترى، هل يستيقظ الناس في إبان النجاة؟ فإن اليقظة النافعة هي التي تكون قبل فوات الأوان، واليقظةُ عند الهلاك والدمار لا تمنح صاحبها غير القرار في قاع البوار.

❖ ❖ ❖

كتب البروفيسور«مايكل بريتشر» ترجمة لحياة جواهر لال نهرو - وقد سأل المؤلف نهرو في لقاء معه بنيودلهي في 13 يونيه من عام 1956: «ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة - طبقاً لفلسفتكم الأساسية في الحياة؟»

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلاً:

«إنني أؤمن ببعض المعايير، قل: إنها(المعايير الأخلاقية)، ولا بد لكل فرد وبيئة من التمسك بها، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول إلى نتائج مفيدة، رغم إحراز التقدم المادي الهائل، وأما(سبل) إقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها في المجتمع، فإنني لا أعرفها، وهناك نظرية دينية لإقامة هذه المعايير، ولكنها تبدو لي ضيقة جداً مع كل طقوسها وطرقها، فأنا أهتم اهتَماماً كبيراً بالقيم الأخلاقية والروحية، بعيداً عن الدين، ولكني لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم في الحياة الجديدة. إنها لمشكلة[1]».

هذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغَ الذي يواجهه الإنسان بشدة في حياته؛ فإن إقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع، حتى يتاح له جو الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة. ولكن الإنسان، بعد أن خذل الإله، أخذ يخبط خبط عشواء بحثاً عن هذه المعايير، وسبل إقامتها في حياة أفراد المجتمع. ولا يزال الإنسان، رغم مئات السنين التي مضت، في أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين...

---

(1) Nehru - A Political Biography, pp.607 - 8.

إنهم يحتفلون، مثلاً، بأسبوع الكرم Courtesy Week لإذابة الحواجز بين الشعب والحكام، ولكن العقلية البيروقراطية لا تذوبُ عند المسؤولين، رغم كل الجهود التي تبذل في المناسبات باسم«الأخلاق». ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لا فتاتٍ كبيرة تقول: «إن السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية» - ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل، بل تزداد يوماً بعد يوم. وذلك يثبت أن عبارة«جريمة اجتماعية» غير كافية لتحريك ضمير الفرد، والحفاظ على النظام[1].

إنهم يبذلون جهوداً ضخمة للتنفير من الجرائم، عن طريق الصحافة، قائلين مثلاً: «الجريمة لا تفيد» Crime does not pay. ولكن النسبة المرتفعة للجرائم، يوماً بعد آخر، دليلٌ على أنَّ «عواقب الجريمة» ليست رادعة، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم.

وكثيراً ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول: «إن تقديم الرشوة، وقبولها - ذنب»، ولكن المرء، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضي في طريقها على قدم وساق، بمشهد من هذه العبارات نفسها، يضطر إلى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة.

إنهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار: «إن القطارات ملك للشعب، وإلحاق أي ضرر بها جريمة ضد الشعب.»، ولكن المسافرين في نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة، ويحطمون زجاجها، وربما يثورون فيشعلون فيها النيران. وهو الدليل على: أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد!!..

إن كبار الزعماء والسياسيين يعلنون في خطبهم: «أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانةٌ في حق الشعب والدولة.»

---

(1) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على إفلاس الفلسفات المادية الإلحادية، غربية وشرقية، موجودة بوفرة في بلاد شرقنا العربي، وتوحي شواهد الواقع أن الأمور تزداد كل يوم سوءاً، نتيجة سيطرة المنحلين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب، وقعود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر، ولا حل للمشكلة إلا بعودة الأمة إلى الله مرة أخرى(المراجع).

ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق أهدافها، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها إلى جيوب المسؤولين، القائمين بأمر هذه المشروعات، بدلاً من إنفاقها في مكانها الصحيح. وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية، رغم كل الجهود التي بذلت من جانب المصلحين والزعماء، وباءت كل الوسائل التي استخدموها بالفشل الذريع[1].

هذه الظواهر هي في الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل، وقد ضللتها عن طريقها، التي لم يكن منه بدّ لمواصلة المسيرة. ولا حلّ لهذه الأزمة إلاّ بالرجوع إلى الله، والتسليم بأهمية الدين للحياة، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه، وليست هناك من أسس أخرى.

❖ ❖ ❖

كتب البروفيسور تشستر باولز[2]، السفير الأمريكي الأسبق لدى الهند، يقول:

«إن الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين، في طريق نهضتها الصناعية. والنوعان معقدان غاية التعقيد. فأما أولهما: فهو مشكلات الحصول على رأس المال، والمواد الخام، والخبرة الفنية، وطرق استخدامها أفضل استخدام. وأما النوع الثاني من هذه المشكلات فيتعلق بالشعب والإدارة الحكومية. فعلينا قبل المضي في ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضي عليه(من مشكلات) فعلاً. ومن كلمات المهاتما غاندي: إن المعلومات العلمية

(1) إن الأمثلة التي ذكرها المؤلف هنا ـ من أسبوع الكرم إلى التلاعب في أموال الدولة ـ أمور عادية جداً في الهند تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسؤولين، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندي آخذة في التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر، فغالبيتهم العظمى تجري وراء مصالحها الذاتية، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية في كل وسط، من أدناه إلى أرقاه ـ وهي حال تدمي قلوب الساسة الوطنيين المخلصين، ولكنهم مغلوبون على أمورهم. المعرب.

(2) Chester Bowles. هو من أشهر الخبراء الاقتصاديين في الولايات المتحدة الأمريكية. المعرب

والكشوف سوف تزيد من شراهة الإنسان، على حين أن الإنسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء[1]. »

فالشعب مجتمعٌ يخضع للبرامج التقدمية، ولكن عناصر التقدم، وهي رأس المال والخبرة الفنية، لا تجدي نفعاً في مجتمع يسوده الفراغ السياسي والحضاري[2].

ما الطريق إلى سد هذا الفراغ، لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام، كلٌّ بواجبه، لرفع شأن البلاد؟

إنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين. ، والحق أن الإنسان لن يستطيع الوصول إلى جوابه في ظل المجتمع الإلحادي. فكل مشروع تقدمي يصاب بتناقض مثير، يتجلى في أن العقائد الشخصية لدى أفراده تخالف العقيدة الاجتماعية. فبرنامج التقدم الاجتماعي مثلاً يهدف إلى إقامة مجتمع رفاهي يتمتع بالأمن والسلام، ثم يقول المفكرون: «إن هدف الإنسان الأساسي هو الحصول على السعادة المادية!» فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم، لأنهم يحرّضون الأفراد على عملٍ هو عكس ما يحتاج إليه المجتمع.

ويرجع إلى هذا التناقض أن برنامجاً من هذا النوع لم يحقق أهدافه إلى يوم الناس هذا، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية.

إن معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الإنسان بكل قواه إلى تحقيق كل ما تصبو إليه أمانيه، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية، في هذا العالم المحدود، لا طريق إليه دون التأثير على الآخرين. ولذلك، فعندما يسعى الفرد إلى تحقيق مطالبه يتحول إلى رُزْء بالنسبة للآخرين. . فأمنية الفرد تدمر أماني المجتمع. وحين يجد فردٌ، يتقاضى مرتّباً بسيطاً، أن موارده لا تكفي لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى إلى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة، حتى لَيُقْدِمُ على السرقات، والرشاوى، والغش، والتزوير، والاستيلاء على حقوق الغير بالقَوة. . وعندئذ يبدأ المجتمع يعاني من المشكلات نفسها التي كان يعاني منها أحد أفراده.

(1) The Makings of a Just Society, (Delhi) 1963, pp. 68 - 69.

(2) المرجع السابق: ص. 31.

إن العالَم الحديث يعاني من مشكلة، لم يجرّبها الإنسان طوال تاريخه هي مشكلة«جرائم الأطفال»، التي أصبحت جزءاً من المجتمع الحديث! من أين يأتي هؤلاء المجرمون الصغار؟ إنهم ضحايا«السعادة المادية». . فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياةَ الزواج بعد وقت قصير، وحينئذ يبدؤون في البحث عن وجوه وأجسام جديدة، ويحصلون على الطلاق، بيد أن المجتمع هو الذي يدفع ثمن الطلاق، حين يلملم في رحابه «أطفالاً يتامى في حياة آبائهم وأمهاتهم»، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيئ لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى، فهم أحرار من كل قيد، وهم ثائرون على المجتمع الذي أنجبهم. وتبدأ هذه الحال بالصعلكة، ثم تنتهي إلى الجرائم القذرة التي كانوا ثمرتها.

ولقد صدق السير الفريد دينيج في مقاله: «إن أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض« أسر محطمة[1]. »

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية. فجميع الحوادث التي نسميها في قواميسنا«جريمة وذنباً» هي محاولة قوم للحصول على أمانيهم الذاتية في الحياة، بعد أن أخفقوا في تحقيقها لسبب أو آخر. وهذه الحوادث تظهر في أغلب الأحيان في صور: الاغتيال، والخطف، والتدليس والتزوير، والقرصنة، والحروب، والزنا، وما إلى ذلك من الجرائم التي تعاني منها الإنسانية.

وهذا التناقض يبيّن بجلاء أن هدف الحياة الأساسي هو الحصول على رضا الله في الآخرة، لا غير. إنه هو الهدف الوحيد الذي يمكنه إنقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير، والسير بهما في طريق الرخاء والسعادة المتبادلة، لأن الفرد في هذا الهدف لا يصادم أماني المجتمع، بل يشترك في كفاحة بطريقة إيجابية فعالة.

فميزة نظرية(الآخرة) تأكيدها على أنها هي الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية، في حين تبين، في نفس الوقت، أنها هي الهدف الوحيد للإنسان الفرد

(1) The Changing Law, p. 111.

أيضاً، لأن أي شيء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية، والموافقة لأهداف البشرية.

❖ ❖ ❖

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: «إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض، غير الموت والشيخوخة»!! ولكن الأمراض، تكثر وتتشعب، وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها «الأمراض العصبية» التي هي نتائج أعراض التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع.

لقد حاول العلم الحديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني، ولكنه فشل في تغذية الشعور، والأماني، والإرادة، وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ممتلئ النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم، وهو أصل الإنسان، أصبح يعاني من أزمات لا حد لها.

لقد أكدت إحصائيةٌ: أن ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب، من ناحية أو من أخرى. ويقول علماء النفس الحديث: إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية: الكراهية، والحقد، والجريمة، والخوف، والإرهاق، واليأس، والترقب، والشك، والأَثَرةُ، والانزعاج من البيئة. وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله.

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جباراً، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدف سامٍ أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة.

إن الإيمان بالله يعطي الإنسانَ محركاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة، ومصدر قوة العقيدة؛ العقيدة التي عبر عنها «السير وليام أوسلر» William Osler بقوله: «إنها قوة محرّكة عظيمة، لا توزن بأي ميزان، ولا يمكن تجربتها في المعامل».

إن هذه العقيدة هي سرّ مخزن الصحة النفسية الموفورة، التي يتمتع بها أصحابها، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلا بالأمراض، أقساها وأعتاها.

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة، ولكنهم في الوقت نفسه يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاجِ هذه الأمراض. وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير، ولذلك أكبوا على الميدان الثاني، يسترون خيبتهم، ويُظهرون بطولتهم أمام العالم! وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً: «إن علماء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار القفل الدقيقة، الذي سوف يُغلق علينا كل أبواب الصحة!»

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد. فهو يحاول من جهة الحصولَ على جميع الكماليات المادية، على حين يتسبب ـ لتركه الدين ـ في خلق أحوّال تجعل من الحياة جحيماً. إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم، ويحقنك السم في العضل!

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف، يقول:

«تعرفت أثناء دراستي بالكلية الطبية على التغيرات التي تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضاً محددة تطرأ على هذه الأنسجة، مما يؤدي إلى اندمال الجروح وشفائها، وعندما أصبحت طبيباً بعد إتمام دراستي كنت جد مقتنع بكفاءتي، وأنني أستطيع أن أحقق نتيجةً موفقة بالتأكيد، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة، ولكن سرعان ما أُصبْتُ بصدمة كبيرة، حيث فرضت عليّ الظروف أن أشعر أنني أعرضت عن أهم عنصرَ في علم الطب، ألا وهو: «الله».

«كانت بين المرضى الذين كنت مشرفاً على علاجهم في المستشفى عجوز في السبعين من عمرها، أصيب أعلى فخذها بصدام، وأكّدَتْ صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة، فقدمت لها تهنئاتي لسرعة شفائها؛ وأشار لي كبير الجراحين:

أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة، لأنها استطاعت أن تمشي دون أن تستند إلى شيء».

«وكان ذلك يوم أحد، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الأسبوعية، فقلت لها: إن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن، وعليك أن تحضري غداً لترافقيها إلى البيت. ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامي، بل توجهت إلى أمها، وقالتْ لها: إنه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) إلى بيتهما، وخير لها الآن أن تنظم لها سكنى بإحدى «دور العجزة».

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز، فشاهدت أن انهياراً سريعاً يطرأ على جسمها، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز، لا بسبب فخذ مكسور، بل جَراءَ قلب كسير.

«وقد حاولت أن أقوم بجميع الإسعافات اللازمة لإنقاذها، ولكن حالتها لم تتحسن، . كانت عظام فخذها المكسورة قد تحسنت كثيراً، ولكني لم أجد علاجاً لقلبها الكسير. أعطيتها كل ما عندي من الفيتامينات، والمعادن، ووسائل التئام العظم المكسور، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرةً أخرى، لقد انجبرت عظامها دون شك، وكانت تملك فخذاً قوية، ولكنها لم تقو على الحياة، لأن ألزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات، والمعادن، ولا انجبار العظم، وإنما كان(الأمل)، الأمل في أن تعيش على نحو معين، فمتى ذهب الأمل في الحياة، ذهبت معه الصحة».

«وكان لهذا الحادث تأثير عميق في نفسي، لإحساسي بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه، لو كانت هذه العجوز تعرف«إله الأمل»، الذي أومن به لكوني مسيحياً[1]».

هذا المثال يعطينا صورة من التناقص الذي يعاني منه العلم في كل جانب من جوانب حياته، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تَمّحيَ الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس، وهو في هذه المحاولة يسعى إلى نهضَة الإنسان، متجاهلاً (الروح)، عنصرَه الأصلي.

---

(1) The Evidence of God, pp. 212 - 14.

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة، ولكن حرمان الإنسان من العقيدة الإلهية يفضي به إلى الموت، رغم كون جسمه في صحة جيدة.

لقد دَمّر هذا التناقض الإنسانيةَ تدميراً، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين؛ والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة؛ والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هي بُؤَر الجرائم، ومصانع المصائب؛ والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة؛ والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها.. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادّيّ الهائل. وكل هذا وذاك يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله، لقد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذي هيأه لنا خالقنا ومالكنا.

إن سبب الأمراض النفسية، التي أشرت إليها، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس، وقد لخص عالِمُ النفس الشهير البروفيسور يانج C.G.Jung تجاربه عنها في الكلمات التالية:

«طلب مني أناس كثيرون، من جميع الدول المتحضرة، مشورةً لأمراضهم النفسية، في السنوات الثلاثين الأخيرة. ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى - الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد 35 سنة - إلا الحرمان من العقيدة الدينية. ويمكن القول: إن مرضهم لم يكن إلا أنهم[1] فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشْفَ أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية.»

إنها لكلمات جلية: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[2].

ولو أردنا المزيد من الإيضاح، فلسوف أقتبس من الأستاذ «أ. كريسي موريسون» رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم (سابقاً)، قوله: «إن الاحتشام،

(1) Quoted by c.a. Coalson, Science & Christian Belief, p.110.

(2) ق: 37.

والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره «نفحات إلهية» ـ لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد».

«فالإلحاد نوعٌ من الأنانية، حيث يَجْلِس الإنسان على كرسي الله».

«لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين».

«سوف يتحول النظام إلى فوضى».

«سوف ينعدم التوازن، وضبط النفس، والتمسك».

«سوف يتفشى الشر في كل مكان».

«إنها لحاجة ملحة أن نقوِّيَ من صلتنا وعلاقتنا بالله[1]».

(انتهى)

(1) Man Does not Stand Alone, p.123.